يوليوس

بقلم

شاربي سيف الدين محمد

مسَاء يوم تمتزجُ بسمائه خُيوط الشمس الصفراء وزُرقة السماء الصافية؛ لترسُم صُورة بهاء على سُهول قرية «تريفولي» الخضراء بضواحي «روما» مدينة التاريخ العريق، مع اقتراب ظلمة الليل المألُوف لأهالي القرية الذين كانت الظلمة حياتهم الطبيعية بسبب الكَنيسة، السُّلطة الوحيدة والفكر المظلم الذي اعتبر العلمَ كُفرًا، الجهل كان تاج إيمان ينال شَرفه القوم التُّبّع، في عصر البذخ والرفاهية لحاشية الاستبداد وظلام العقول والبطون للبسطاء الذين يفقدون حياتهم أحيانًا في سبيل لقمة العيش.

كان الشاب «يوليوس» العامل بمزرعة لأحد مستبدي زمنه، الذين يعيشون بالمدينة بينما ثرواتهم تُبنى بأيادي البسطاء وعرق الفقراء، من أجل جُبن وخبز آخر النهار، أو قطعات نقدية ستكفيهم ليبقوا يومًا آخر بهذه الحياة البائسة، في نفس الوقت كان «يوليوس» يتجه للمنزل يُفكر في عائلته الصغيرة التي لن تتحسن أحوالها أبدًا، وأخته الصغيرة التي لا زالت تظن بأن للأحلام مكان بهذا العالم، فتنام سعيدة وتستيقظ مُستبشرة على الرغم من أن يومها يضيع برفقة والدها المريض، لا تدري بأن أحلامها لن تتحقق وهي بالقرب من فراش رجل ينتظر النهاية، حتى والدتها التي اعوجّ ظَهرها، وداهمها المشيب

لم تعد قادرة على العمل بأي شكل من الأشكال، فيستسلم «يوليوس» ككل مرة للظروف التي جعلته يُكرس ربيع عُمره لخدمتهم، يقف على باب البيت مُحدثًا نفسه (وصلتُ سريعًا)، يسمع صُراخ أخته بالداخل: «ماما أنا جاائعة»، يدخل مُصطنعًا ابتسامته، إجابته تسبق سؤال أمه: «أنا بخير».

لم يتناول عشاءه ليلتها فقد داهمت عيناه جنية الأحلام فأسالت عليه من صندوق الأحلام، فرأى أنه ببلاد يتحقق بها ما يُرى بالمنام، عَلم أنه نام نومة لم ينمها من سنين حين أخبروه على طاولة الإفطار بأنهم حاولوا إيقاظه مرارًا.

قبّل الجميع بعينيه الدامعتين بدمع سال على قلبه لا خده، التقط كيس حاجياته واتجه للعمل.

تحت ظل أشجار الكروم التي تقي العمال من شمس حارّة، سمع «يوليوس» اثنين يتحدثان بصوت خافت عن بلاد بالشرق يحدث فيها أن يُشفى المريض، ويعيش الإنسان كريمًا، وتُبنى الأحلام بغير مشقة، نال الفضول منه واتسعا بؤبؤا عينيه أملًا، واقترب منهما سائلًا، ردّا بنظرة الاستغراب، فبدى لهما صدق قلبه فرد أحدهما: «نعم إنها بلاد بالشرق المسير إليها شهر على خيل السفر بها علماء وأناس طيبون، يعيش بينهم الفقراء، هكذا قيل لنا»، قطع حوارهما مرور أحد مستبدي المزرعة، اختفى الرجلان فيما بعد لكن الفكرة علقت في ذهن «يوليوس».

بات ليلته مُتأملًا سقف غُرفته غير مصدق بأن هناك بقعة في هذا العالم اللئيم يُمكن أن يعيش بها الإنسان حياة كريمة غير آبه بمُضايقات

القدر، غير مصدق بأنه مستيقظ ظانًّا بأن حلم ليلة البارحة لا زال يُراوده منذ سماعه تلك الكلمات من زميليه بالمزرعة، بات فرحًا مسرورًا لم تفارق الغبطة مُحياه، تأمل طويلًا السقف ثم انكب على وجهه، أخذه ذلك الأمل الضئيل إلى نوم سعيد خفيف ليستيقظ قبل الجميع، استقام في جلسته سريعًا بنشاط لم يعتده، بدأ يبينُ ضوء النهار ولاحت الشمس بخيوط أشعتها لتخترق نافذته، حدث نفسه طويلًا بتعابير حُزن وندم وكلمات نسجتها له حالة أبيه الذي يُشفق عليه، وأخته التي يرى فيها براءة وأحلامًا سُرعان ما ستموت تحت وطأة القهر الذي يعيشونه، ووالدته التي تبذل من روحها لكي يعيشوا، استسلم لدموعه التي بللت خديه.

في جانب آخر من العالم حيث لا يبكي الرجال قهرًا، كانت فتاة عربية شديدة سواد العينين طويلة القامة، بيضاء لون بشرتها يُسرّ كل من يراها، تُضفي على سوق «دمشق» جوًّا من بهاء بضحكتها العفوية، تقضي حوائجها بين الرجال والنساء في بلدة عمها الرخاء.

سُرعان ما عادت لمنزلها لتُنادي عليها أمها: «رُميساء، لدينا ضيوف الليلة».

لترد الجميلة: «حسنًا أمي أعود للسوق؟».

نادت الأم: «لديك ما يكفيك من المال بنيتي؟» لكن رُميساء سبقتها.

اتخذ «يوليوس» قراره سرًّا، لم يُرد إخبار أحد، أخذ في جمع كل حاجياته، كل ماله المدّخر استطاع به كسبَ واحدة من خيول السفر، خبأه لدى صديق مؤتمن ليخرج به صبيحة ذات يوم، استيقظ صباحًا

تناول فطوره، قبّل الجميع على غير عادته، غلب شعور الأم فأحسّت بالغرابة، بكَت فنالت قُبلة أخرى، وخرج ظانًّا الجميع بأنه متوجه للعمل.

على طاولة العشاء يجلس والد «رُميساء» وعمها يتبادلان أطراف الحديث عن سير التجارة وكيف أن القوافل التي تتجه نحو الهند تعود بسلع جديدة كل مرة؛ فعمّها بائع حرير بسوق دمشق الكبير وتاجر معروف، أخذ يُحدثهم حين اجتمعت العائلة عن مغامراته.

خاصة «رُميساء» التي تشتاق لحديث عمها وقصص مغامراته التي لا تنتهي؛ خاصة حين يبدأ بالحديث عن الليالي التي يقضيها في الصحراء وأصدقائه التُّجار وسمرهم حول النار التي يُضرمونها؛ لكنه أبدًا ما حدثهم عن قُطاع الطرق؛ الذين يفرضون عليهم ضريبة؛ لأنه يُعتبر بطلًا في نظر ابنة أخيه، ولا يحب إفساد تلك الصورة أبدًا.

أما على بعد رحلة شهر غربًا فقد كانت عائلة «يوليوس» تبكي ابنها الذي لم يعد حتى الساعة، خائفة من غطرسة صاحب المزرعة الذي يُمكن أن يكون قد قتله.

بات الحُزن رفيقًا لهم ليلتهم، أُخته الصغيرة التي بفضله تختبر أول مصائب الدنيا بفقدها لسندها وأمانها أخيها الأكبر، ووَالدته التي تُركت وحيدة تُحارب قدر أوروبا الذي فُرض على كل منزل آنذاك، ووالده الذي طالما كان يشعر بالفخر؛ لأنه سيترك رجلًا للعائلة فقَتل فيه شُعور الاطمئنان الذي كان سيجعل من موت الرجل رحيمًا، لكن العائلة تُشفى بمرور الأيام وبفعل النسيان الذي كان نعمة لهم، فأعاد الزمان خياطة الجزء الممزق منهم، وفي الأيام التي كانوا مشغولين

بنسيان «يوليوس» كان هو يشق طريقه من قرية لأُخرى يسأل عن أرض الأحلام التي سمع عنها، حالته المُزرية وجوعه الذي يتواصل ليومين متتاليين أحيانًا، وخوفه من العصابات وقُطّاع الطرق ليلًا كانت كلها تتبدد في وجه الأمل الذي انطلق به أول مرة، وعزمه على الوصول نحو أرض الأحلام التي نسجتها مخيلته فقط من كلمات غريبين بمزرعة.

ربط حصانه بشجرة ونام بقرب أخرى ليرتاح قليلًا ويواصل مسيره، لكن أصواتًا عالية متداخلة أيقظته مفزوعًا؛ لتقابله صورة تعوّد أن يسمع عنها من رجال يعملون معه عن حروب شاركوا بها، كانوا مجموعة رجال مُلثمين يمتطون أحصنتهم.

أول ما تبادر لذهن «يوليوس» الذي ترتعش يداه خوفًا أنهم مجموعة قُطاع طرق سُرعان ما سيقتلونه، أو على الأقل سيسرقون حصانه وسينتهي حُلمه هنا، تحدث أحدهم بصوت عالٍ ولغة غير مفهومة، «يوليوس» يرفع يديه عاليًا مُستسلمًا ويُشير لحصانه وكيس الدراهم آملًا في أن يفهموا بأن هذا كل ما يملك، يُحاول أن يخبرهم بأن يأخذوا ماله، حين توقف فاقدًا الأمل بأن يفهموه، تقدم الرجل الذي يبدو زعيمهم ليُقدم له كيسا من العُملات النقدية مشيرًا له باتجاه لكي يسلُكه، يُشير للجميع فرحلوا منصرفين بعيدًا، بقي مذهولًا حتى اختفوا، لم يعرف أيشعر بالسعادة لأن الرب وهبه فرصة أخرى وأملًا جديدًا أم لأنهم لم يقتلوه؟ أسرع بحصانه متجهًا مثلما أخبره الملثم الغريب.

بعد مسير يوم كامل ذُهل بالمنظر الذي رآه من على تل يُطل على مدينة بدت شوارعها ضيقة ومنازلها تقترب من بعضها، لاحظ غرابة البناء

الطويل على جانب منازل كبيرة وشكلها الدائري الغريب الذي لم يعهده في «روما»، دخل المدينة غريبًا يمشي بين الناس فلا أحد اقترب منه ولا حارسًا يسأله، صادف عند السُّور الأول للمدينة السوق، كان هناك رجل يجلس على طاولة خياطة ذو لحية بيضاء طويلة وذنبي شعر يتدليان بالقرب من أُذنيه، يرتدي قبعة سوداء طويلة ولباسًا أسودًا بالكامل يرمُقه بنظرات غريبة، ناداه فاستجاب «يوليوس» متخوفًا، ألقى السلام فرفع «يوليوس» يده، سأله بلغته فقفزت عيني «يوليوس» فرحتين.

سأله: «هل أنت من بلاد الملك «فيليب»؟»، استغرب «يوليوس» ثم ليثق؛ أخبره بأنه يهودي مُتعلم يتكلم لغة أهل البلاد واللغة التي يتحدثها «يوليوس»، وبأنه بإمكانه مساعدته فذلك واجب ديني عند اليهود.

تعهد العجوز اليهودي لـ«يوليوس» بأن يُساعده في الوصول للمكان الذي يريد؛ إذا ما ساعده في عمله أيامًا قليلة ريثما تمر القافلة التي تتجه للشرق، بقي مدة رفقة العجوز الذي وظّفه بكل الأعمال الشاقة التي لا يستطيع القيام بها فكان يرسله لشراء الكتّان، فيضطر للتواصل مع أهل البلاد، سُرعان ما بدأ يتعلم لغتهم، كان يُوصل اللباس لبعض الزبائن فيتجول ببعض أزقة المدينة، فَهِم فيما بعد أن تلك البناءات الطويلة مآذن يُنادون فيها لصلاتهم، بدأ يتأقلم مع اللحظات التي يبقى فيها السوق فارغًا حين يذهبون لتأدية صلواتهم، لم يعُد صوت الأذان غريبًا أبدًا، أصبح ينام ليلًا فبدى بصحة أحسن مما كان، فهو لا يضطر أن يحرس مكان عمله فلا سرقة بسوق هذه البلاد، الأمان والسلام، هذا الذي افتقده ببلدته، لاحظ أن الجميع بشُوش، وأن الناس تُعامل بعضها

بعضًا على الرغم من اختلاف دياناتهم، لاحظ أنهم مُتعلمون عكس أبناء جلدته، بدأ يفهم كيف تسير الأمُور هنا، عَلمَ بأنه في «إسطنبول» العظيمة حتى أخذ يتساءل أهذه الجنة التي أردت الوصول إليها؟

في مكان أقرب للوصف من «إسطنبول» تتحضر «رُميساء» رفقة والدتها للخروج إلى المسجد القريب، حيث تلتقي نساء الحارة لتنظيفه فيوم الزينة قد اقترب، تُساهم كل نساء الحارة بتنظيفه؛ فيُنظفن الأفرشة ويمسحن الغبار ليبدو نظيفًا لصلاة العيد لديهم، «الجامع» كما يسمونه، معلم تاريخي بارز تركه الأجداد قائمًا فيُحافظ عليه كل شخص هناك فيجتمع تُجار القرية وأهاليها لتزيينه حين المناسبات مثل شهر رمضان، وتجتمع النساء للتنظيف حين يحتاج لذلك، فكانوا يغرسون احترام ذلك المكان المقدس بقلوب أولادهم، دخلت «رُميساء» تحمل قصعة مكدوس (أكلة معروفة بدمشق)؛ لتجتمع النساء حولها في جو روحي بهيج امتزج فيه الشعور بمسؤولية التدين ومسؤولية المجتمع.

انطلق «يوليوس» مُودعًا إسطنبول بعين تدمع فرحًا لما ستلقاه، وأخرى تدمع حزنًا لما خلفت، كان الشيخ اليهودي قد أودع في جيبه ما يكفيه لرحلته، ودّع «يوليوس» المدينة التي ظن لوهلة أنها مدينة الأحلام، خرج منها شخصًا آخر غير الذي وصل إليها أول مرة، فذلك الفتى الذي كان يظن بأن أكبر هم للناس ضمان قوت يومهم أصبح يدرك أن هناك من يهمهم التكاتف بينهم لتكوين مجتمع متكامل حيث لا مكان لفقير على الرغم من اختلاف الديانات والفكر، كيف إنهم استطاعوا توفير الأمان ببلادهم والاطمئنان بقلوبهم، فازدهروا في تجارتهم، وتوفرت ظروف العيش الكريم لديهم.

مرت الأيام بسرعة والليالي أسرع، واقتربت القافلة من «دمشق» قبلة كل الناس، ومعبر القوافل القادمة من أوروبا والعائدة اليها، في «دمشق» العربية التي يحكمها المسلمون ويعيش فيها اليهود والمسيحيون، ويمر بها البوذيون وحتى المجوس، فيستقبلهم المسلمون ويرحبون بهم، وينزلون عندهم، ويلقون منهم حسن الخلق وطيب المعشر؛ حتى أصبح لا فرق بين أحد، وعمّت الحرية، وصار الإسلام مطلب الجميع، فلا أحد يمكن أن يرى المثالية بمدينة كتلك، ولا يطلب سر ازدهارها، فعرف الإسلام حينها انتشارًا بفتوحات الأخلاق لا فتوحات السيف، نادى مُناد في القافلة أنها وصلت «دمشق»، ودع «يوليوس» قائد القافلة سائلًا إياه عن مكان السوق حيث يمكن أن يجد ضالته، فقد سبق له وأن علم بأنه المكان الوحيد الذي يمكن لغريب أن يجد عملًا به، كان يرى في كل رجل ذو لحية بيضاء صديقًا، استطاع التواصل مع أقرب محل من أجل العمل، لم يجد صعوبة في التواصل فقد تعلم الكثير في «إسطنبول»، قوبل بالرفض كثيرًا لكن حظه مع اليهود كان جيدًا فقد قبل بائع عقاقير يهودي توظيفه، وسرعان ما نال ثقته بعد أيام، فقد رأى فيه من النشاط والحماس وسرعة التعلم ما يجعله مفيدًا للمحل، كان عربون الثقة من اليهودي لـ«يولويوس» السماح له بالمبيت في المحل، فبعد كل تلك المدة كان يستحق ذلك، فقد بدأ يكسب أصدقاء وجيرانًا في السوق، وبدأ يفهم كيف أن التعايش مع جميع فئات الناس ممكن؛ فجارهم صاحب محل الكتّان رجل مسيحي، والمحل المقابل ملك لرجل مسلم يعمل به شاب مجوسي؛ قد أتى من الشرق لأرض الأحلام هاته، وهو مسيحي آخر يعمل لدى يهودي، كان قد فهم كيف أن الإنسانية أسمى من الدين، فالإنسان للإنسان لا المسلم للمسلم أو المسيحي للمسيحي.

حزينة «رُميساء» بسبب مرض والدها المفاجئ وحائرة، استدعت الطبيب الذي وصف لها مجموعة عقاقير بذلك المساء حيث اتجهت للسوق في وقت متأخر بعد جدال مع والدتها، كانت أغلب محلات السوق مغلقة لكن دلها صديق والدها على محل عقاقير يُغلق متأخرًا، توجهت مسرعة فوجدت شابًّا أوقفه صوتها متأملًا بهاءها طويلًا، نادته مجددًا فكأنه استفاق.

– «سيدي هل يمكن أن أجد لديك ما كُتب بالورقة؟».

أمسك الورقة وعيناه تكاد لا تفارق عينيها بعد، سيدتي: «هذا دواء لمرض»، ردت بينها و بين نفسها: (وماذا غير ذلك يا ذكي!)، لم تكن تعلم أنه أسر في نفسه كون الدواء لا يُطلب للعلاج إنما لتأجيل أسوأ ما يمكن أن يحدث فقط.

نالت طلبها وغادرت مُسرعة.

مُنهمكًا في إعداد طلبية لزبون حتى ناداه صديقه المجوسي، وغمز له لرؤية الفتاة التي زارته بوقت متأخر بالأمس، حدث نفسه (رأيتني أيضا!؟)، لاحظت «رُميساء» «يوليوس» يُسقط طبق القرفة ذاك وصراخ العجوز التي أفسد لباسها بسبب عينيه اللتان عانقتا عينيها، أسرعت في مشيتها ضاحكة، بدت أسعد من أمس (مُحدثًا نفسه).

بات ليلته بالمحل كعادته ليرى في منامه الجنية التي زارته ذات ليلة مُبشرة إياه بأرض الأحلام، تُبشره بحياة تتحقق بها الأحلام.

* * *